مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثامن عشر

١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م

نابونيد آخر ملك بابلي

د. عيـــد مـرعـــي
قسم التاريخ
جامعـة دمشق

استطاع نابو بولا صَّار زعيم إحدى الجماعات الآرامية (الكدانية) في جنوب بلاد بابل الاستيلاء على بابل وتنصيب نفسه ملكاً شرعياً هناك عام ٥٢٥ ق.م. ومع الزمن وطّد سلطته في كل بلاد بابل ثم أسهم بالتحالف مع الملك الميدي كي أخسار Kyaxeres في إسقاط الامبراطورية الآشورية الحديثة واحتلال العاصمة نينوي عام ٦١٢ ق.م ثم حرَّان آخر معقل آشوري عام ٦١٠ ق.م. فشملت مملكته (البابلية الحديثة أو الكلدانية) كل بلدان الرافدين تقريباً إضافة إلى عيلام.

خلفه في الحكم ابنه نبوخذ نصَّر الثاني الذي قاد خلال فترة حكمه الطويلة (٦٠٥ – ٥٦٣ ق.م) حملات متعددة على سورية غربي الفرات كان من نتائجها القضاء على النفوذ المصري هناك وضم تلك المنطقة إلى ممتلكاته.

أما على الصعيد الداخلي فقد قام نبوخذ نصَّر الثاني بأعمال عمرانية متعددة أشهرها إعادة بناء زقورة بابل (برج بابل) وترميم معبد مردوك في بابل وتوسيعه وبناء بوابة عشتار وشارع المواكب والحدائق المعلقة.

اعتلي عرش بابل بعده ابنه أويل مردوك الذي حكم سنتين فقط (٥٦٢ – ٥٦٠ ق.م) إذ قتله زوج أخته القائد العسكري نيرجال شار أوصور (٥٥٩ – ٥٥٦ ق.م) وتسلّم السلطة مكانه. كان هذا مالكاً كبيراً للأراضي وتحت تصرفه مساحات واسعة منها حول بابل وأوبيس Opis (بالقرب من دجلة).

كرس هذا الملك معظم سنوات حكمه القليلة للقيام بأعمال عمرانية كترميم المعابد والقصور وحفر الأقنية. أما على الصعيد الخارجي فقاد في سنة حكمه الأخيرة حملة

عسكرية إلى كيليكية أعاد فيها إخضاع هذه المنطقة للسيطرة البابلية. وعلى الصعيد الديني تمتع كهنة مردوك إله مدينة بابل وهم من البابليين بأفضلية كبيرة في عهد هذا الملك. وهذا أثار الحقد والنقمة عند كهنة الإله سين في أور من الآراميين والذين كانت تربطهم علاقات وثيقة مع كهنة سين في حرَّان الخاضعة آنذاك للسيادة الميدية.

وارتبطوا أيضاً بعلاقات مع كهنة شماش إله الشمس في لارسا وسيبار. ويبدو أن صراعاً دينياً احتدم بين هذين الفريقين، كهنة مردوك، وكهنة سين، للسيطرة على الحياة الدينية في بلاد بابل.

وقد غذى هذا الصراع التناقضات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة. وبلغ الصراع أوجه عند وفاة نيرجال شار أوصور وانتقال السلطة إلى ابنه وولي عهده لاباشي مردوك الصغير السن.

رأي كهنة سين وشماش في ذلك فرصة مناسبة للحساب، فقاموا باغتيال الملك الجديد بعد ثلاثة أشهر من اعتلائه العرش (عام ٥٥٦ ق.م.)، ونصبوا نابونيد، الرجل الذي يتمتع بثقتهم، ملكاً على بابل.

من هو نابونيد ؟

(نابونيد أونابو نائيد Nabû-na'id اسم أكَّادي يعني، مُبجِّل نابو «ونابوهو إله الكتابة والكتَّاب في بابل، ويدعى نابونيد عند الإغريق نابو نيدوس Nabonidos).

هو أكثر الشخصيات غموضاً وإثارة في قائمة ملوك بلاد الرافدين الطويلة. كان متقدماً في السن عند اعتلائه العرش (نحو ستين عاماً). لكنه كان متحمساً لأفكاره الدينية وسياسياً رزيناً اكتسب خبرة كبيرة من خلال شغله مناصب إدارية هامة في عهد نبوخذ نصر ونيرجال شار أوصور. فكان على سبيل المثال مبعوث نبوخذنصر عام ٥٨٥ ق.م. لحل الصراع بين مملكتي ميديا وليديا، وذلك حسب هيرودوت (I74) الذي

يسميه لابينيتوس Labynetos. ويظهر في فصول لاحقة بنفس الإسم كملك لبلاد بابل (I77 ,188).

من المؤكد أن نابونيد لم يكن من أصل ملكي، وهذا ما يعترف به صراحة في كتاباته. والمعلومات المتوافرة عن أبيه نابو بلاطسو-إقبي Nabû-balatsu-iqbi قليلة، وتشير إلى أنه كان والياً (شَكَناكو Shakkanakku) وأميراً (روبو Rubû). وهذا يقود إلى الاستنتاج إلى أنه ربما كان شيخ قبيلة بين شيوخ جماعات القبائل الآرامية الموجودة في بلاد بابل[١]. أما أمه فهي أدد جوبّي Adad-guppi التي مارست عليه تأثيراً كبيراً. وكانت إحدى عابدات سين إله القمر من حران وليست كاهنة له كما كان يعتقد سابقاً[٢] ووجدت بعد احتلال المدينة من قبل الميديين (٦١٠ ق.م) مع ابنها نابونيد ملجأ في بلاط بابل حيث دخل نابونيد في خدمة نبوخذنصرّ ونيرجال شار أوصور. وقد عمرت طويلاً فكانت وفاتها عام ٥٤٧ ق.م. عن عمر يناهز ١٠٤ سنوات. ورث عنها نابونيد اهتمامها الشديد بعبادة الإله سين إله القمر. ونتيجة لأصوله الحرّانية، ولاهتمامه بنشر عبادة الإله سين، ولتسميته ملوك نينوي أسلافه الملكيين، ولاستخدامه بعض ألقابهم يرى بعض الباحثين أمكانية اعتباره آشورياً ومن نسل آشور بانيبال العاهل الآشوري الكبير[٣].

وللدفاع عن نفسه ضد الاتهامات الموجهة إليه عندما تسلّم السلطة والقائلة أنه مغتصب للسلطة ومصلح ديني نجده يقول في إحدى كتاباته:

«لاباشي مردوك الذي كان لا يزال أبناً صغيراً (لنيرجال شارأوصور) نصب نفسه على العرش ضد رغبة الآلهة ... بناء على أمر مردوك سيدي رُفعت إلى حكم البلاد... أنا المنفذ الشرعي (لسياسة) نبوخذ نصر ونيرجال شارأوصور أسلافي الملوك، بينما أويل مردوك بن نبوخذ نصر ولاباشي مردوك بن نيرجال شار أوصور..» هنا للأسف يبدو النص غير كامل، ولكن المعنى يبدو واضحاً، الملكان اللذان خسرا العرش عن طريق

ثورة كانا حاكمين ناكرين للآلهة. على عكسهما أظهر نابونيد تبجيله لمردوك إله المملكة الكبير بشكل واضح وتصرف كالحامي الأمين لتقاليد سلفيه الكبيرين نبوخذ نصر ونيرجال شارأوصور[٤].

غير أن اهتمامه الشديد بعبادة الإله سين وتركيز نشاطه العمراني على ترميم معابده أو إعادة بناء معابد له في حران (معبد إِهُلْهُلْ E.hul. hul الذي دمره الميديون خلال حربهم مع الآشوريين) وفي أور وتنصيب ابنته بيل – شالتي – ننَّار Bêl-Shalti-nannar، حسب التقاليد البابلية القديمة، كاهنة كبرى في معبد سين في أور (عام ٥٥٤ ق.م) واعتبارها « عروساً إلهية » لسين، جعل كهنة مردوك يرون فيه خطراً على الديانة التي يمثلونها وتهديداً كبيراً لمصالحهم، واتهموه بعد هزيمته أمام قورش الفارسي بالكفر وعدم عبادة أي إله وعدم تأسيس أي معبد بعكس قورش الذي احتفل به كمحرر[٥].

سياسته الخارجية :

لم ينفجر الصراع بين نابونيد وكهنة مردوك مباشرة بعد اعتلائه العرش. فسلطة الفريق المنتصر بقيت دون أن تمس. واستطاع نابونيد أن يتابع سياسة أسلافه السابقين، وخاصة الخارجية منها دون مشاكل. فقاد في سنة حكمه الثالثة (٥٥٤ / ٥٥٣ ق.م.) حملة ضد حماة ونصبَّ حيرام الثالث ملكاً على صور ووصل حتى غزة، وفي السنة التالية كان أيضاً في سورية حيث جمع قواته هناك ودخل الصحراء العربية وحاصر أدومو Adummu دومة الجندل، (الجوف حالياً على بعد نحو ٤٠٠ كم شرق العقبة) وهي واحة هامة من واحات الصحراء كان الآشوريون قد استولوا عليها في الماضي نظراً لأهميتها[٦].

وخلال الفترة ما بين ٥٥٦ – ٥٥٠ ق.م. حاول نابونيد استغلال التطورات في مملكة ميديا الواقعة إلى الشرق من بلاد الرافدين لصالحه، وذلك بتشجيعه قورش الثاني Cyrus II الأمير الفارسي الذكي والطموح على توسيع مملكة فارس والخروج على جده

وسيده الأعلى ملك ميديا.

وكان الهدف من وراء ذلك إضعاف ملكة ميديا التي كانت تشكل قوة كبيرة في ذلك الوقت واستعادة مدينة حران في أعالي بلاد الرافدين التي كانت تتمتع بأهمية اقتصادية وتجارية ودينية كبيرة آنذاك فهي محطة هامة على الطريق ما بين بلاد الرافدين وآسية الصغرى وما بين إيران وسواحل المتوسط الشرقية. إضافة إلى كونها مركزاً رئيساً في مراكز عبادة سين إله القمر، وهي مسقط رأس نابونيد الذي كان يحلم باستعادتها وبإعادة بناء معبد سين فيها.

غير أنها كانت بيد الميديين منذ عام ٦١٠ ق.م، ولم يكن بمقدور نابونيد وحده استعادتها. لذلك رأى في الفرس حلفاء له فدعم زعيمهم قورش الثاني في ثورته على جده أستياجس Astyages ملك الميديين.

حاول أستياجس القضاء على قورش الثاني فدعاه للمثول أمامه في إقباتان (همذان الحالية) العاصمة. لكن هذا رفض ما اضطر أستياجس إلى تجريد جيش كبير والدخول في حرب مع قورش أنتهت، بسبب خيانة قائد الجيش الميدي وانضمامه إلى قورش، بانتصار مؤزر لقورش ووقوع أستياجس في الأسر وهكذا وجد قورش نفسه في يوم واحد سيد المملكتين الفارسية والميدية (عام ٥٥٠ ق.م).

هذا الحدث الهام في التاريخ المعروف قبل وقت طويل عن طريق أعمال المؤرخين الكلاسيليين (هيرودوت I 122 - 130 وديودوروس الصقلي وسترابون) تذكره أيضاً النصوص المسمارية المعاصرة له. فنابونيد يخبرنا في إحدي كتاباته أن مردوك ظهر له في المنام وأمره بإعادة بناء معبد سين (إهُلْهُلْ = معبد الهلال) في حران. وعندما قال الملك أن حران في أيدي الميديين (Umman-manda) أجاب مردوك : « الأُمَّان–ماندا الذين تتكلم عنهم، هم وبلادهم والملوك الذين بجانبهم لن يبقوا طويلاً. في السنة الثالثة

القادمة سأجعل قورش ملك أنزان Anzan (أنشان، عيلام سابقاً) عبدهم الفتي يطردهم. بقواته القليلة سيشتت الميديين المنتشرين بكثرة. هو (قورش) أسر أستياجس (إشتومينو Ishtumegu) ملك الميديين وأخذه أسيراً إلى بلاده »[٧].

يظهر من هذه الكتابة أن نابونيد يحاول أن يبرر وقوفه إلى جانب قورش بالادعاء أن مردوك هو الذي أو حى له بذلك من خلال التنبؤ بنصر قورش وهزيمة الميديين.

وهناك تقرير آخر أكثر دقة عن هذا الصراع يرد في ما يدعى، حولية نابونيد Nabonidos Chromicle :

« الملك اشتوميغو استعدى قواته وسار ضد قورش ملك أنشان للقاء به في معركة. جيش اشتوميغو ضده وسلموه في القيود إلى قورش »[٨].

استغل نابونيد هذه الأحداث فبسط نفوذه على حران (٥٥٢ ق.م) مدينته الأم وبدأ بإعادة بناء معبد سين فيها المهدم منذ أربعة وخمسين عاماً وذلك بتسخير كل القوى والوسائل والامكانات الموجودة وربما هدف من وراء ذلك بالإضافة إلى الهدف الديني ربط الآراميين في أعالي بلاد الرافدين بالامبراطورية البابلية بشكل أكبر وتقوية الحدود الشمالية[٩].

غير أن التحالف بين نابونيد وقورش الثاني لم يدم طويلاً. فبعد انتصاره على الميديين قاد قورش سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة التي نتج عنها بعد عشر سنوات تكوين امبراطورية ضخمة لم يشهد العالم مثلها بعد.

كان هدفه الأول ليديا على السواحل الغربية لآسية الصغرى حيث يحكم كروسوس Croesus (قارون في المصادر العربية) المشهورة بغناه الخرافي، بعد اجتيازه هضبة أرمينية سار قورش بقواته على الطريق الذي يسير موازياً سلسلة جبال طوروس عبر سهول الجزيرة عابراً دجلة أسفل نينوي ومتجهاً نحو الغرب عبر حران حتى وصل كيليكية

المملكة التابعة لبابل فاحتلها خارقاً بذلك التحالف الذي عقده مع نابونيد ومجبراً إياه على الوقوف إلى جانب ليديا وحليفتها التقليدية مصر. ولكن لم يكن لا بوسع مصر ولا بابل إرسال قوات مساعدة إلى كروسوس الذي التقى قورش وحده في معركة بتيريوم Pteryum عام ٥٤٧ ق.م. وهُزم فيها وأعقبها سقوط مدن أيونية اليونانية بيد قورش وخضوع آسية الصغرى بكاملها للحكم الفارسي.

بعد ذلك اتجه قورش بجيوشه نحو الشرق حيث أخضع ممالك شرق إيران، فرثيا Parthia وآريا وممالك صغديا Sogdia وبكتريا Bactria في تركستان وأفغانستان. وأخضع أيضاً جزءاً من الهند. وأمتدت بذلك الامبراطورية الفارسية من سواحل بحر إيجة من الغرب إلى هضبة البامير والهند في الشرق، وأصبح الصراع واقعاً لا محالة بينها وبين الامبراطورية البابلية الحديثة وعلى رأسها نابونيد.

الإقامة في تيماء

ذكرنا سابقاً أن نابونيد قاد في سنة حكمه الثالثة حملة على حماة، وجمع في السنة التالية لها قوات في سورية ودخل الصحراء العربية وحاصر أدومو (الجوف). ولكن غير معروف ما إذا كان قد عاد إلى بابل بعد هذه الحملة أو تابع زحفه على واحات أخرى في شمال شبه الجزيرة العربية وذلك بسبب وجود كسر في اللوح الذي يتحدث عن ذلك.

غير أن تدوينات سنوات حكمه من السنة السابعة حتي الحادية عشرة تذكر أن «الملك كان في تيماء». وتيماء[١٠] واحة كبيرة في غرب شبه الجزيرة العربية، كانت مركزاً دينياً كبيراً لعبادة إله القمر. أتخذها نابونيد مقراً له بعد أن انتصر على أميرها ملكو وقتله. ثم أعاد بناءها وشيد فيها مقراً له شبيهاً بقصره في بابل وأحاطها بسور. وتذكر إحدى كتابات نابونيد من سنة حكمه العاشرة أن المؤونة كانت تنقل بوساطة الجمال من معبد في أوروك إلى نابونيد في أرض تيماء[١١]. ويبدو أن خروج نابونيد إلى تيماء كان

في السنة السادسة من حكمه[١٢]. ويتحدث نابونيد في الكتابة المكتشفة في أطلال الجامع الكبير في حران عام ٩٥٦ ق.م. عن ذهابه إلى تيماء وإقامته عشر سنوات هناك متنقلاً بين واحات غرب شبه الجزيرة العربية إذ يقول[١٣]:

« أنا نابونيد، ابن وحيد ليس له أحد. لم يكن في ذهنه تسلّم العرش الملكي. الآلهة والإلهات صلّوا من أجلي، ومن دعائي لتسلّم الحكم. في الليل جعلني أرى حلماً (قال لي فيه) مايلي: إِهُلْهُلْ معبد سين في حران شَيِّدْهُ بسرعة. أريد أن أعطيك كل البلاد في يد(ك). الناس، سكان بابل وبارسيپا ونيپور وأور وأوروك ولارسا، الكهنة، أناس من مناطق سكن في أكاد أخطأوا في حق ألوهيته الكبرى وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الآلهة نَنَّار Nannar (سين). نسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً، ككلاب افترس بعضهم بعضاً. جعلت (الآلهة) مرضاً وجوعاً ينتشر بينهم. هو (سين) أنقص سكان البلاد. أما أنا فقد جعلني أهرب من مدينتي بابل، (وسلكت) الطريق إلى تيماء، دادانوا Dadanu (العلا حالياً)، پاداكّو padakku (فدك حالياً)، خيبرا Chibra (خيبر)، يديخو yadichu (يديع وهي الحويط في حرة خيبر في شرقها)[١٤] حتى إلى يتريبو yatribu (يثرب، المدينة المنورة). عشر سنوات تجولت بينهم ولم أدخل مدينتي بابل».

ولكن ما هي الأسباب التي جعلته يغادر بابل ويقيم في تيماء كل تلك الفترة الطويلة؟ هو نفسه يعطي سبباً لخروجه إلى تيماء شقاق البابليين مع أنفسهم وعقوبة الآلهة (أواسين) اللاحقة على ذلك والمتمثلة بالمرض والجوع.

غير أن المعلومات المتوافرة لا تتحدث عن مثل هذا الوباء وحتى انتشر. فمعظم الوثائق الاقتصادية والقانونية المعروفة من العهد البابلي الحديث تعود إلى فترة حكم نابونيد. ويظهر الاقتصاد البابلي من خلالها مزدهراً بشكل غير عادي. مرة واحدة فقط تذكر مجاعة والتي كانت دافعاً لأرملة لتسلم ولديها إلى معبد إي أنَّا Eanna معبد الإله سين

في أوروك. ويرقى تاريخ الوثيقة التي تذكر ذلك إلى السنة الحادية عشرة من حكم الملك نابونيد والتي كان يوجد فيها بالتأكيد في غرب شبه الجزيرة العربية. غير أنه يمكن أن نسمح لأنفسنا بالافتراض أنه تقبع خلف كلمات الملك حقيقة يجوز تفسيرها بشكل عكسي وهي أن الملك نفسه كان مصاباً بمرض (جنون أو جذام) لذلك غادر بلاده إلى تيماء[١٥]. من المستبعد أيضاً أن تكون المجاعة والمرض وحدها استوجبا رحيل الملك. فغير مفهوم تماماً لماذا تجول في مناطق واسعة من الجزيرة العربية حتى وصل إلى يثرب. فإقامة قصيرة في تيماء كانت تكفي. لذلك يجب علينا البحث عن أسباب أخرى لخروجه[١٦].

من الواضح أن الملك نقل نشاطه إلى الجزيرة العربية، ربما لأنه لم تكن هناك امكانية للقيام بغارات وحملات عسكرية في اتجاهات أخرى. فسورية كانت تخضع له. والانطلاق نحو الشمال غير ممكن بسبب وجود الفرس الذين ارتبط معهم باتفاق ما على ما يبدو. أيضاً التوسع نحوالشرق لم يكن ممكناً للسبب نفسه. والطريق الوحيد المفتوح أمامه كان باتجاه الجنوب الغربي نحو شبه الجزيرة العربية. هنا حاول الملك أن يكسب منطقة نفوذ جديدة له. ويبدو أقل احتمالاً أن نابونيد كان يريد كسب العرب إلى جانبه في حلف موجه ضد الفرس. فالجو العام الذي يصفه النص الذي يتحدث عن أعماله في تيماء يسود فقط في بلد محتل وليس في بلد حليف حيث يذكر أنه: «قتل أمير تيماء بالسلاح ثم أخضع بلاده وأجبر رعاياه على السخرة». كذلك القول: «الاخضاع تحت قدميَّ» يشير إلى عمل إذلال وتبعية وليس إلى الرغبة في كسب حلفاء[١٧].

يمكن القول إن عوامل متعددة ساهمت في خروج الملك إلى تيماء. فانطلاقاً من حملة ضد العرب المهاجمين للبلاد بقصد السلب والنهب أخضع نابونيد الواحات الكبيرة في شبه الجزيرة العربية لسلطته واضعاً بذلك طرق التجارة الهامة تحت مراقبته. ففي منتصف القرن السادس قبل الميلاد طغت الرمال على سواحل الخليج العربي بحيث أصبح

من المتعذر على السفن البحرية أن تؤم ميناء أور في جنوب بلاد الرافدين. وكان ميناء خُديمير Chudimir على الساحل الشرقي للخليج تحت المراقبة الفارسية بينما كان نقل البضائع على الطريق البري بمحاذاة السواحل الغربية صعباً ومتعباً جداً، وهكذا كانت المواصلات التجارية تتم بشكل أساسي على طريقة الصحراء كانت تبدأ من الجرعاء على الخليج العربي مارة بالإحساء فالهفوف ثم بريدة وحائل عابرة تيماء باتجاه الغرب نحو مصر. وبما أن نابونيد يسيطر على تيماء التي كانت تشكل محطة هامة على هذا الطريق كان بامكانه التحكم والاستفادة من عملية نقل وتبادل البضائع عليه، في الوقت نفسه أراد من خلال ذلك أن يمارس ضغطاً اقتصادياً على مصر لاجبار الفرعون المصري على إعادة النظر في سياسته اتجاه بابل[١٨]. كذلك كانت تيماء محطة هامة على الطريق التجارية القادمة من الجنوب من اليمن والحجاز والمتجهة شمالاً إلى دمشق، وتعني السيطرة عليها السيطرة على التجارة المارة على هذه الطريق.

باستيلاء نابونيد على واحات غرب شبه الجزيرة العربية وسع سلطته باتجاه الجنوب. وحاول بالتأكيد عبر ذلك حماية ظهره في هجوم متوقع من الشرق من قبل القوة الجديدة الامبراطورية الفارسية، وفعل ذلك بطريقة تقليدية هي الاخضاع وليس التحالف.

إلى جانب ذلك يمكن أن تكون النية موجودة بعدم الرغبة في إضرام نار النقمة والمعارضة التي أشعلها تفضيله لإله القمر من حران وعبادته في بلاد بابل، ومن ناحية أخرى العيش في بلاد تنتشر فيها عبادة أحد آلهة القمر[١٩]. علماً أن عبادة إله القمر (سين، هلال، قمر، شهر) انتشرت في ذلك الوقت في أنحاء متعددة في المشرق العربي القديم مثل أور وحران وسيناء وتيماء وحضرموت.

على أي حال أقام نابونيد في واحات غرب شبه الجزيرة العربية نحو عشر سنوات ناب عنه خلالها في إدارة دفة الحكم في بابل ابنه وولي عهده بيل شار أوصور (بيلشاصر في التوراة) الذي كان قد أشركه معه في الحكم منذ سنة حكمه الرابعة. ونتيجة لغياب

الملك توقفت أشهر وأهم احتفالات دينية في البلاد وهي احتفالات رأس السنة (أكيتو) المكرسة للإله مردوك إله بابل الرئيسي. وأدى هذا إلى تزايد النقمة على الملك وبشكل خاص من قبل كهنة مردوك الذين عبروا عن نقمتهم بشكل عملي وذلك بالاتصال بقورش الثاني ملك الفرس ودعوته، على ما يبدو، للقدوم إلى مدينتهم.

سقوط بابل بيد الفرس :

بعد أن أنتهي قورش الثاني من إخضاع كل المناطق المجاورة للامبراطوريته في الشرق والغرب اتجه بأنظاره إلى بابل حليفة الأمس، وأخذ يعد العدة لاحتلالها ومما شجعه على ذلك الأوضاع المضطربة فيها وخاصة نقمة كهنة مردوك على مليكهم نابونيد المقيم بعيداً عن عاصمته في تيماء، الذين أقاموا علاقات سرية معه وعدوه فيها بالمساعدة في حال ظهوره أمام أسوار مدينتهم. ومهدوا لقدومه بتمجيده بين سكان بابل كمحرر قادم سيعيد عبادة مردوك كما كانت.

وحذا حذوهم أيضاً اليهود المهجرون إلى بابل منذ عام ٥٨٦ ق.م. على يد نبوخذنصَّر الثاني، الذين كانوا قد وصلوا إلى تأثير اقتصادي كبير في بابل. وأملوا من وراء مساعدتهم لقورش بالسماح لهم بالعودة إلى أورشليم (القدس) وإعادة بناء هيكلهم هناك[٢٠].

كذلك كان للسياسة التي اتبعها قورش في كل البلدان التي خضعت له والقائمة على كسب ود السكان المحليين أكثر من إخافتهم للخضوع، وعلى الظهور كمحرر ومعاملة أسراه برحمة واحترام، وتشجيع العبادات المحلية والمحافظة على العادات والتقاليد السائدة، كان لها تأثير إيجابي في كل الشرق القديم، واعتقد الكثير من البابليين أنهم سيفقدون القليل فقط عندما يصبحون رعايا مثل هذا الملك. فظهرت كتابات على سور بابل تقول: «بابل ستكون غنيمة سهلة»[٢١].

هذا الوضع المتأزم في بابل أجبر نابونيد على العودة إلى عاصمته حيث سمح بالاحتفال

بعيد رأس السنة الجديدة (٥٣٩ ق.م) وبنفقات كبيرة، وذلك لتهدئة الوضع الداخلي وكسب رضا السكان. وغير أنه قام في نفس الوقت بنقل تماثيل الإله سين وابنه نوسكو Nusku وقرينتيهما في موكب احتفالي من العاصمة إلى حران حيث افتتح معبد إِهُلْهُل بأبهة كبيرة، ونصبت فيه مسلتان تحملان كتابة تتحدث عن أعمال نابونيد وتمجيده للإله سين. وعُثر على هاتين المسلتين حديثاً كما ذكرنا سابقاً.

وأعتقد نابونيد أن بإمكانه إيجاد مخرج للأزمة التي تعيشها البلاد فأمر بنقل تماثيل الكثير من الآلهة البابلية إلى العاصمة (فقط كهنة بارسيبا وكوتا وسيبار لم ينفذوا الأمر) بغية إيقاظ الشعور الوطني عند السكان وجعلهم يدافعون عن مدينتهم ضد الغازي الأجنبي غير أن كل هذه الاجراءات جاءت متأخرة ولم توقف العد التنازلي الذي بدأ في حياة الامبراطورية البابلية الحديثة.

بدأ قورش هجومه على بلاد بابل في خريف عام ٥٣٩ ق.م. كان نابونيد قد أمر ابنه وولي عهده بيل شار أوصور بنشر قواته على طول دجلة في سبيل حماية العاصمة. لكن الفرس كانت لديهم الغلبة في العدد. والأسوأ من ذلك أن الحاكم المعين من قبل نابونيد في منطقة شرق دجلة (غوتيوم القديمة، ديالي حالياً) وهو جوبارو Gubaru (Gobryas) وهو فارسي الأصل، والذي كان يجب أن يحمي الجناح الأيسر لجيش بيل شار أوصور، انتقل إلى صفوف العدو.

الأحداث اللاحقة توصف بالتفصيل في « حولية نابونيد » :

« في شهر تشريتو (أيلول – تشرين أول) عندما هاجم قورش جيش أكاد في أوپيس opis على دجلة ثار سكان أكاد، لكنه (أي نابونيد) ذبح المشتبه بهم من السكان. في اليوم الرابع عشر سقطت سيبار دون قتال، نابونيد هرب. في اليوم السادس عشر دخل جوبارو حاكم غوتيوم وجيش قورش بابل دون قتال. بعد ذلك أُلقي القبض على نابونيد

في بابل عندما عاد إلى (هناك) . حتى نهاية الشهر أحاطت دروع غوتيوم بوابات إزاغيلا Esagila (معبد مردوك) . ولم تنقطع الطقوس الدينية في معبد إزاغيلا ولا في المعابد (الأخرى)، ولم تهمل أي مواعيد (أعياد واحتفالات دينية) . في الثالث من أراخسمنو Arachsamnu (تشرين الأول – تشرين الثاني) دخل قورش بابل . عُسْلوج ضخم (نبات) نُشر أمامه . أُعلن سلام لكل بابل . قورش أرسل تحيات إلى بابل كلها . جوبارو واليه عينه والياً على بابل . من شهر كيسليمو (تشرين الثاني – كانون الأول) حتى شهر آذار (آذار – نيسان) عادت آلهة أكاد، التي جلبها نابونيد إلى بابل، إلى معابدها »[٢٢] .

يتضح مما تقدم أن قورش الثاني استولى على بلاد بابل دون مشقة تذكر حتى أن العاصمة استسلمت له وفتحت أبوابها دون أية مقاومة . ومرَدُّ ذلك المعارضة الشديدة لحكم نابونيد والتي تزعمها كهنة مردوك .

كان بيل شار أوصور قد لقي حتفه في معركة أوپيس[٢٣]، أما نابونيد فحسب كزينوفون المؤرخ اليوناني، فقد حياته في بابل، غير أن بيروسوس (برحوشا) المؤرخ البابلي (القرن الثالث قبل الميلاد) يذكر أن قورش عفى عنه ونفاه إلي كرمانيا في بلاد فارس حيث قضى بقية حياته[٢٤] .

أما بابل المدينة المحتلة فقد عاملها قورش باحترام عظيم ولم تجر فيها أية عمليات نهب أو تخريب . وحياه كهنة مردوك كمحرر ومنقذ أرسله مردوك، واعترفوا به حاكماً شرعياً على بلادهم .

وكمؤمن بأهورامزدا « إلَه النور الرحيم » أقام قورش في بابل إدارة سلمية احترمت آلهة البلاد وسمحت بإعادة تماثيلها، التي أمر نابونيد بجلبها إلى بابل خلال الحرب، إلى معابدها الأصلية . وحتى آلهة بلاد آشور التي أخذها الميديون أعيدت وأعيد بناء معابدها .

وسمح قورش لأعضاء الجماعة اليهودية المهجرة في بابل بالعودة إلى أورشليم (القدس) وإعادة بناء الهيكل. وتتحدث التوراة عن ذلك معتبرة أن (يهوه) بارك قورش وأرسله لتخليص اليهود المهجرين في بابل من الأسر (إشعياء ٤٤ : ٢٤ – ٤٨ : ٢٢).

لم يدخل قورش الثاني أية تعديلات على الحياة في بابل واعتبر نفسه خليفة للحكام المحليين وتلقب بألقابهم، سار إلى بابل بأمر من الإله مردوك لإنقاذ المدينة من النقمة التي حلت بها. لذلك تقبل البابليون حكمه برضى وهذا ما يعبر عنه في كتابة باللغة الأكادية على أسطوانة طينية تعرف باسم « أسطوانة قورش »[٢٥]:

« عبادة مردوك ملك الآلهة مما من وجدانه (المقصود نابونيد). هو كان يفعل دائماً ما هو سيء لمدينته... رعاياه أهلكهم جميعاً دون رحمة لشكواهم غضب مردوك غضباً شديداً.. الآلهة الذين سكنوا فيهم غادروا أماكن سكناهم. جلبهم، على الرغم من غضبهم، إلى بابل. مردوك.. إلى كل الأماكن التي مساكنها متداعية، وإلى سكان سومر وأكاد الذين أصبحوا يشبهون الجثث عاد بوجدانه ووسع رحمة. فتش كل البلاد وفحص، وبحث عن حاكم عادل حسب ما يرغبه قلبه، أمسكه بيده: قورش ملك أنشان دعاه لحكم الكون ونطق باسمه. غوتيوم وكل الميديين أخضعهم تحت أقدامه. الناس من ذوي الرؤوس السوداء (المقصود سكان بلاد بابل) الذين قهرهم بيديه حفظهم بحق وعدالة. مردوك السيد الكبير الذي يعتني برعاياه نظر فرحاً إلى أعماله الطيبة وإلى قلبه العادل. أمره أن يذهب إلى مدينته بابل وجعل الطريق إلى بابل يُشق أمامه. كصديق ورفيق ذهب معه. قواته الكثيرة التي عددها مثل ماء النهر لا يقاس زحفت مدججة بالأسلحة برفقته. بدون قتال وبدون معركة جعله (أي مردوك) يدخل مدينته بابل. أنقذ بابل من الضيق. وسلمه نابونيد الملك الذي لم يبده. سكان بابل جميعاً وكل بلاد سومر وأكاد. أمراء وولاة ركعوا أمامه (أي أمام قورش) وقبلّوا قدميه وفرحوا بتسلمه الملكية وأضاءت وجوهم. السيد الذي عن طريق مساعدته جعل الأموات أحياء وأبهج

الجميع عوضاً عن الضيق والشر. بايعوه بسرور وعبدوا اسمه.

أنا قورش ملك امبراطورية العالم، الملك الكبير، الملك القوي، ملك بابل، ملك سومر وأكاد، ملك جهات العالم الزربع، ابن قمبيز الملك الكبير ملك أنشأن حفيد قورش (الأول) الملك الكبير، ملك أنشان سليل تايسبس Teispes الملك الكبير ملك أنشأن، النسل الأبدي للملكية، الذي أحب حكمه بيل (بل، المقصود مردوك) ونابو (إله الكتابة والكتّاب)، والذي تمنيا لحكمه الملكي أن يُرِح قلبيهما.

عندما دخلت سلمياً إلى بابل أقمت وسط تهليل وفرح مقر الحكم في قصر الحاكم. مرودك السيد الكبير لي القلب الواسع.. من بابل.. يوماً بيوم أهتممت بعبادته. قواتي الكثيرة اخترقت بابل سلمياً. لم أدع أي مضايق يظهر في كل بلاد وسومر وأكاد.

مدينة بابل وكل معابدها حافظت عليها جيداً. سكان بابل الذين بعكس إرادة الآلهة عليهم نير لا يليق بهم.. جلعتهم يرتاحون من عنائهم ورفعت عنهم السخرة. سُرّ مردوك السيد الكبير من أعمالي الطيبة وباركني برحمة أنا قورش الملك الذي عبده وكذلك قمبير ابني من صلبي وكل قواتي. بخير وسرور تمشينا أمامه.

بناءً علي أمره العظيم جلب لي كل الملوك الذين يجلسون على عروش كل جهات العالم من البحر الأعلى وحتى البحر الأدنى، الذين يسكنون في جهات بعيدة، كل ملوك أمورو الذين يسكنون في خيام، جزيتهم الثقيلة، وقبلّوا قدميَّ في بابل. من نينوى وآشور وسوزة وأكاد وإشنونا وزمبان Zamban وميتورنو Meturnu ودير حتى منطقة غوتيوم، المدن التي على الطرف الآخر من دجلة، والتي بيوتها كانت متداعية منذ القدم الآلهة المقيمة هناك أعدتها إلي أماكنها وجعلتها تدخل مسكناً دائماً. كل سكانها جمعتهم وأعدتهم إلي أماكن سكناهم. وآلهة سومر وأكاد التي جلبها نابونيد إلى بابل لإغضاب سيد الآلهة، بناء على أمر مردوك السيد الكبير، جعلتها تتخذ في معابدها

المكان الذي يفرح قلبها».

على الرغم مما قد يبدو من مبالغة في هذ الكتابة فإن، الحياة اليومية في بلاد بابل سارت قدماً في ظل الحكم الفارسي دون أي تغيير يذكر، وبخاصة في مجال العبادات المحلية. ولم تطرأ أية تغييرات على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. تشهد على ذلك الوثائق المكتشفة والتي تعود إلى تلك الفترة.

أما على الصعيد السياسي فإن سقوط بابل بيد الفرس كان نقطة تحول تاريخية هامة ليس فقط في تاريخ منطقة بلاد الرافدين بل في تاريخ المشرق العربي القديم ككل. إذ شكل بداية قرون طويلة من الخضوع للقوى الأجنبية المحتلة.

الحواشي

(1) Labat, R., in: Fischer weltgechichte 4 , DieAltorientalischen Reiche III , Die erste Hälfte des 1. Jahrtouserds, Frankfurt am Main 1967, S. 103.

(2) Röllig, W., Erwägungen zu neuen stelen könig Nabonids in: Zeitshrift FirAssyriologie, Neue folge, Band 22 (Band 56), S, 236.

3 - Schmibkel, H., Geschiechte des alten vorderasien, Leiden 1957, S. 317;Von Soden, w., Herscher im alten Orient. Bernlin - Göttingen - Heidelbeg 1954 S. 146.

4 - Labat, R. Fischer weltgesdichte 4, S. 103.

5 - Schmölkel. H., op.cit., S. 318

6 - Labat, R., op. cit., S. 105; Roux, G.,Ancient Iraq, London 1980, p. 356.

7 - Roux, G., Ancient Iraq, P. 355.

8 - Ibid.

9 - Röllig, W., op.cit., S. 260.

(١٠) أقدم كتابة يرد فيها اسم تيماء هي الكتابة المسمارية التي تعود إلي زمن الملك الآشوري تيجلات بيليصر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧ ق.م) والتي وردت فيها أسماء المدن والقبائل العربية التي دفعت له الجزية ومنها تيماء Tema . انظر صبحي أنور رشيد، العلاقات بين وادي الرافدين وتيماء، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثاني، الرياض ١٩٨٤، باشراف د. عبد الرحمن الانصاري، ص ٣٨٧.

(١١) المرجع السابق ص ٣٨٧.

(12) Röllig, W., op. cit., S. 244

(13) Ibid., S. 224.

(١٤) صبحي أنور رشيد، المرجع المذكور، ص ٣٨٨.

(15) Röllig, W. op. cit., S. 245.

(16) Ibid., S. 246.

(17) Ibid., S. 251.

(18) Labat, R., op. cit., S. 109.

(19) Röllig, W., op.cit., S. 252.

(20) Schmökel. H., op. cit., S. 319.

أورُوشليم Urushalem تسمية كنعانية قديمة لمدينة القدس وتعني «مدينة السلام» أو «مدينة (الإله) شلم (أو سلم)». علماً أن الإله شلم هو إله الغروب عن الكنعانيين انتشرت عبادته في فلسطين منذ القرن ١٩ ق.م. انظر: عيد مرعي، تاريخ بلاد الرافدين، دمشق ١٩٩١، ص ١٢٠ هامش ٧٤.

(21) Roux. G., op. cit., P. 357.

(22) Ibid., p. 357; Borger, R., in: Texte ausder Umweltdes alten Testament Band I. Lieferung 4. Historisch - chronologisohe texte I, Guterslon 1984 S. 404.

(٢٣) تذكر التوراة أسطورة عن موت بيل شار أوصور في سفر دانيال الإصحاح الخامس معايرة لما هو معروف من المصادر المسمارية.

(24) Labat, R., op. cit., s. 110, Burstein, S.M., the Badylonica of Berossus, Malibu 1978, p. 28.

(25) Borger, R. op. cit, S. 408 ss.